نحو فلسفة لغوية عنـد زكي نجيب محمود

أميرة إبراهيم عبد الغني[١]

ملخَّص:

تناول البحثُ اللغةَ عند زكي نجيب محمود، التي عُني بها عنايةً مخصوصة من زاويتيها؛ المبنى والمعنى، فقد عرض للعلاقة بين الكلمة ومعناها –عنده– من حيث يرى تلك العلاقة علاقة سببية، متبنيًا وجهة نظر المدرسة السلوكية، ومتأثرًا في ذلك بنظرية النسبية. كما عالج البحث الكلمات والعبارات ومعانيهما، وإبراز نجيب أهمية بعض الكلمات البنائية مثل كلمة "كل" ودورها في صيـاغة القانون العلمي، وبعض العبارات الأخلاقية التي ترد فيها كلمات مثل "خير" و"جمال"، التي اختلف فيما تؤديه من معنى مع الوضعية المنطقية.

كما عرض نجيب في حديثه عن الكلمات، بوصفها مشكلةً فلسفيةً مهمة، وهي مشكلة أسماء الأعلام، والتي رأى أنها رموز كاملة في مقابل الكلمات الكلية التي هي رموز ناقصة، كما قدَّم البحث موقف زكي نجيب من الفلسفة والميتافيزيقا، بوصفه ناقدًا لهما من خلال الكلمة، حيث يرى أن ما يرد فيهما من كلمات، ليست دالة على مسميات خارجية، مثل كلمة "مطلق"، لكنها تُفهم في السياق الذي وردت فيه؛ ومن ثم يمكن إنقاذ الفلسفة والميتافيزيقا من الإلغاء واللا معنى؛ ذلك أن المعنى يتعلق بالمرجع. ومن ثم فإن "المعنى" عند نجيب، هو ما يشير إلى شيء من الأشياء أو صورة من صور السلوك، فيأتي هذا اتساقًا مع الروافد التي أسهمت في تشكيل فكره مثل: البرجماتية، والسلوكية، والوضعية المنطقية، التي يعدها رافدا رئيسا لفكر الرجل المتدفق.

ثمة أمر أخير وجب التنبيه إليه؛ وهو أن تناول زكي نجيب محمود للغة وللمعنى، إنما هو تناول فلسفي مختلف في كثير من جوانبه عن تناول علماء اللغة والمعنيين بها، غرضًا ورؤية.

الكلمات المفتاحية: اللغة، المعنى، الفكر، زكي نجيب، الوضعية المنطقية، السلوكية

---

(١) مدرس الفلسفة وتاريخ العلوم– كلية الآداب– جامعة المنيا.

مقدمة

في كتابه (تجديد الفكر العربي) يقول زكي نجيب محمود:" إن اللغة (هي الرموز التي نتبادلها كلامًا وكتابة، وَفق قواعد تضبط تركيباتها وتصريفاتها)" [١]. وفي كتابه (بذور وجذور) يقول عن اللغة: (اللغة ظاهرة يعيشها الإنسان. كل إنسان في أي زمان ظهر وفي أي مكان وقع، وربما قد مضت من تاريخ البشر دهور بعد دهور، وهو يمارس اللغة مع سائر أعضاء مجتمعه) [٢]. من خلال ما ذكرناه يتضح الأساس الذي يتكئ عليه زكي نجيب محمود في فهمه، ومن ثم تعريفه للغة من كونه ينظر إليها من زاويتين هما: اللغة نسق من الرموز ونظام قواعدي. أما الزاوية الأخرى فهي: اجتماعية اللغة، وهذه الاجتماعية لا تنفي كون اللغة مَلكة، ومن ثم فهي ذات بعد ثقافي. وهذا الأساس الذي انطلق منه الرجل ينطوي على تكامل الزاويتين، ويفتح بابًا حول تطور فكر زكي نجيب محمود.

وهنا ندلف إلى العلاقة بين كلٍّ من الفكر واللغة والعالم، والذي يمثِّل ما يسمَّى بالمثلث الدلالي، فالكلمات لا تقوم بالإحالة إلى الأشياء وحدها، بل الإنسان هو من يحيل إلى الأشياء من خلال استعماله الكلمات؛ وهنا نقول إن الكلمات تمكننا من الولوج إلى أذهان الآخرين؛ ومن ثم نفهم أن الوصول إلى المعرفة يبدأ من اللغة، فاللغة إذن طريقة للكلام والفهم معًا، وينطوي ذلك على امتلاك اللغة مفهومًا إدراكيًّا، حيث لا تمثل اللغة وجودًا مستقلًا عن الإدراك البشري.

فماذا إذن عن علاقة اللغة بالمعنى؟ وما العلاقة بين الكلمات والعبارات أو المعنى اللفظي والمعنى السياقي؟ هذا ما يحاول البحث الإجابة عنه. ولبلوغ تلك الإجابات قُسِّم البحث إلى ثلاثة أقسام:

الأول: اللغة عند زكي نجيب محمود.

الثاني: الكلمات والعبارات ومعانيها

الثالث: نقد الفلسفة والميتافيزيقا من خلال الكلمة.

ولتوضيح موقف الدكتور زكي نجيب من بعض المسائل والقضايا اللغوية، قارنها البحث ببعض الاتجاهات الفلسفية والنفسية المعاصرة مثل: البرجماتية والوضعية المنطقية، والسلوكية، ومدى اتفاقه واختلافه معهم، كما سوف يوضح البحث.

اللغة عند زكي نجيب محمود

"اللغة"* ضربٌ من ضروب السلوك (٣). هكذا عرَّف د. زكي اللغة، وهذا يعني أن ممارسة هذا السلوك قد ينتج عنه فعل مدين، أو علم ناجح في الحياة الخارجية. غير أنه يرى أن ممارسة هذا السلوك تكون على مستويين هما:

(١) "الإدراك** الفطري" للأشياء فهو ما يشترك فيه أعضاء المجتمع الواحد في العصر الواحد، اشتراكًا مصدره اتفاقهم على أنماط معينة من السلوك، الذي يردون به على المواقف المختلفة، واتفاقهم على لغة يتفاهمون بها ويصبون فيها ثقافتهم، فبالإدراك الفطري نميز الأشياء بعضها عن بعض، ونقول عن شيء ما إنه "ماء"، وعن شيء آخر إنه "هواء"، وشيء ثالث إنه "شجرة".. وهلم جرا.

(٢) "الإدراك العلمي" لهذه الأشياء مختلف عن ذلك كل الاختلاف، فها هنا تنحل الأشياء إلى عناصرها، وإلى الكميات التي اجتمعت بها هذه العناصر، حتى لتبعد صورتها عن الصورة التي يراها بها الناس في حياتهم بعدًا شديدًا، فمن ذا يستخدم مقعدًا أو منضدة أو ملعقة... عالمًا بأن كل شيء مؤلَّف من ملايين الكهارب الموجبة أو السالبة. هكذا يكون الإدراك العلمي للأشياء، فلإن كان الإدراك الفطري يستهدف الانتفاع بالأشياء والتمتع بها؛ فالإدراك العلمي

يستهدف "العلم" بها من حيث عناصرها الأولية وطريقة تركيبها [٤] أي إن العلم يعنيه الجانب الكمي.

وهذا يعني أن هناك لغتين؛ لغة التفاهم، وهي ما يعبر بها الناس عن مشاعرهم وأفكارهم وآرائهم.

لغة الفهم: فلا تختلف باختلاف عقلية أهلها وإنما تختلف باختلاف موضوعاتها، وهذه هي اللغة العلمية* أي اللغة الخاصة بالعلماء والمصطلحات العلمية المشتركة بينهم.

والدكتور زكي عندما ربط اللغة بالإدراك الفطري، كأنه يشير بذلك إلى المرحلة الأولى من مراحل تطور اللغة، وهي الكلمة المنطوقة التي كانت مع الإنسان منذ صغره وتطورت لتكون معبرة عمَّا يسمى (باللغة العامة) أو القومية لمجتمع من المجتمعات.

كما أنه ربط اللغة الثانية بالإدراك العلمي، وكأنه يشير بذلك إلى ارتباط اللغة بالتطور الذي صاحب الحياة في المجتمعات الحديثة من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية أو العلمية... إلخ، وما يشير إلى ظهور اللغة المكتوبة والتي مثَّلت المرحلة الثانية في تطور اللغة.

ونلاحظ في كلا المستويين أن دكتور زكي جعل الغرض من الإدراك الفطري – على حد تعبيره– الانتفاع بالأشياء والتمتع بها من الناحية الكيفية، أما الإدراك العلمي يستهدف العلم بهذه الأشياء أو تحليلها إلى عناصرها الأولية؛ ومن ثم طريقة تركيبها كما سبقت الإشارة، أي إنه ينتج عن المستويين آثارٌ معينةٌ أو سلوكٌ ناجحٌ في الحياة الخارجية –وخاصة الإدراك العلمي.

مما يحدو بنا إلى القول بأننا نلمح ثمة اتفاق بين د. زكي و"بيرس"؛ وهو أحد الثالوث البراجماتي المعروف "بيرس– وليم جيمس– جون ديوي"، والذي يرى أن

معنى الكلمة أو العبارة؛ "هو مجموعة ما يمكن أن يؤديه الإنسان من أعمال، مسترشدًا بالكلمة أو العبارة، وما ليس يهدي إلى عمل معين فلا معنى له، فالأفكار إما أن تكون خططًا للسلوك العملي، أو لا تكون شيئًا على الإطلاق"(٥).

أي إن اللغة –المكونة من كلمات وعبارات– لا بد أن تكون خططًا للسلوك العملي، أي ننظر إلى النتائج العملية المترتبة عليها، وإلا فلا طائل من استخدامها. وإذا كانت اللغة هي ما يميز الإنسان –أو هي بتعبير اللغويين– دالة الوجود الإنساني، فالسؤال المطروح: ما العلاقة بين الكلمات والأشياء؟ أو كيف تكتسب الكلمات معانيها أو دلالاتها؟

للإجابة عن هذا السؤال، يضرب د. زكي مثلًا بكلمة "قلم"، فنفترض أن لدينا مجموعتين من الأشياء؛ مجموعة منها هي الصور والحالات التي تكون عليها الكلمة، ككلمة "قلم" مثلًا، ومجموعة أخرى هي أفراد الأقلام، فإذا كانت المجموعة الأولى دالة على المجموعة الثانية، فلنا أن نسأل:

ما الذي يبرر لحدث من أحداث الطبيعة اسمًا ولحدث آخر أن يكون "مسمًّى"(٦).

الجواب هو: الاتفاق الصرف، فليس في أي لفظة في الدنيا سر خفي، يحتم أن تدل على ما تدل عليه، اللهم إلا ما قد تواضع عليه الناس من أن يكون "صوتًا" معينًا دالًا على شيء، أو أن تكون صورة مداوية معينة دالة على شيء معين، فاللفظة المنطوقة طبيعتها صوت كأي صوت آخر، كما أن حفيف الشجر صوت وزمجرة الهواء على صخور الجبل صوت، وهكذا هي في طبيعتها صوت كأي صوت آخر يخرج من حنجرة الإنسان، فما الذي يميزها عن سائر الأصوات بحيث تصبح –دونها– لفظًا ذا مدلول؟

الجواب: هو الاتفاق الصرف ولا شيء غير ذلك، وللناس أن يغيروا من اتفاقهم كيفما شاءوا وفي أي وقت شاءوا، لأنه ليس في طبيعة "الرمز" شيء يحتم أن يكون دالًا على ما اتفق الناس أن يدل عليه(٧). فهو هنا ربط بين "العلامة" و"الرمز"* غير أنه يفرق بين "العلامة الطبيعية" و"الرمز الاتفاقي"، فالعلامة الطبيعية مثل البرق، ودلالاتها الرعد، كلاهما من الحوادث الطبيعية المقترنة سواء أراد الإنسان ذلك أم لم يرد، وأما الرمز الاتفاقي فغير ذلك، فهو من صناعة الإنسان (٨). وكأن د. زكي يشير بذلك إلى أن اللغة قد ابتدعت واستحدثت "بالتواضع والاتفاق"، وهذا هو مؤدى نظرية "الاتفاق" أو "المواضعة" التي ترى أن العلاقة بين الألفاظ ومعانيها علاقة اتفاقية تقوم على ما يتفق عليه الناس، أو يصطلحون على استخدامه.

ولم يكتف د. زكي بذلك، بل حاول توضيح أن الكلمة ليست واحدة كما يظن بعضهم، بل هي أحداث كأي أحداث أخرى، ما يقع في عالم "الحس". فكلمة "قلم" مثلًا أربع صور، فهي: إما منطوقة أو مسموعة أو مكتوبة أو مقروءة(٩). فالفارق كبير من حيث التكوين بين الكلمة وهي" منطوقة"، وبينها وهي "مسموعة"، فالحوادث الفيزيقية التي تحدث في العالم الطبيعي، حين ينطق الناطق بكلمة "قلم"، ليست هي بذاتها الحوادث الفسيولوجية التي تحدث في الجهاز العصبي حين يسمع السامع صوت هذه الكلمة.

وليس الأمر كذلك أن ما كتبت على الورق كلمة "قلم" كنت في مجال آخر، لأنك عندئذ تكون بصدد علامة من المداد؛ وليست ذرات العداد المتجمعة على الورق في كلمة "قلم" شبيهة أدنى شبه باهتزاز الهواء في حالة نطق الكلمة، أو بحركة الأعصاب في حالة سمعها، وإذن فاللفظة "المكتوبة" نوعٌ من الحوادث الفيزيقية يقع في عالم الطبيعة كأشباهه من الحوادث التي تنتج عن تجمع للذرات المادية في هذا الجسم أو ذاك، فإذا وقعت عليها عين الرائي بحيث أصبحت "مقروءة"،

نشأت مجموعة أخرى من الحوادث في الجهاز العصبي وذرات المخ بادئة هذه المرة بالعين (١٠).*

فالدكتور زكي يميل إلى تحليل ألفاظ اللغة شأنها شأن أي واقعة من وقائع الطبيعة، وهو ما ذهبت إليه الوضعية المنطقية*.

هذا عن علاقة الكلمات بالأشياء، فلا بد أن يكون هناك الشيء المسمى، وإلا كانت كلمة بغير معنى، وهذا ما أكد عليه الدكتور زكي.

ولكن ماذا عن المعنى Meaning وما العلاقة بين المعنى والكلمة؟

إن لكلمة "معنى" **معاني عدة تلتقي كلها في أن شيئًا يرمز إلى شيء آخر، والكلمات والعبارات اللغوية واحدة من أنواع الرموز ذوات "المعنى"، فقد يلاحظ الإنسان بين ظاهرتين طبيعيتين ارتباطًا، بحيث إن ظهرت إحداهما توقع الأخرى، كارتباط البرق والرعد، فإذا رأينا البرق، توقعنا أن تسمع صوت الرعد، وعندئذ يكون "معنى" البرق أن رعدًا سيتلوه.. ومعنى انخفاض الزئبق في البارومتر، أن عاصفة ينتظر هبوبها وهكذا.. ولا كان ارتباط السبب بالمسبب هو من قبيل هذا الارتباط الذي يجعلنا نتوقع ظاهرة إذا ما بدت ظاهرة؛ جعلنا السبب هو "معنى" المسبب وهذا المعنى هو العلة التي عنها حدثت تلك الظواهر(١١).

فالدكتور زكي هنا ربط بين المعنى والعلة، فجعل من المعنى علة* بعض الظواهر هذا يعني أنه يؤيد (النظرية السببية) في تفسير العلاقة بين الكلمة ومعناها، والتي تتعلق بدراسة الآثار المترتبة على استخدام الكلمات بوجه عام؛ فقد تكون الكلمة سببًا في إحداث سلوك أو في قيام أو استدعاء فكرة من الأفكار سواء تم ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر، وهي تبدو مناسبة للإجابة عن نوعين من الأسئلة:

١- أسئلة تبدأ بكلمة "ماذا" What questions مثل: ما المعنى أو ما معنى المعنى؟

٢- نوع آخر من الأسئلة تبدأ بكلمة " كيف" How- questions مثل: كيف يكون للكلمات معنى؟ (١٢).

وتعد "النظرية السلوكية" إحدى صورها والتي مؤداها: "أن السلوك الإنساني بعامة، واللغوي خاصة، يمكن تفسيره على أنه نوع من الاستجابات responses لمنبهات (أو مثيرات) موجودة في البيئة الخارجية أو متعلقة بالفرد الذي يؤدي السلوك، بحيث إن اللفظ الذي يتم نطقه في هذه الحالة، يمكن أن يصبح بدوره منبهًا "بديلا" يؤدي إلى استجابة جديدة.. وهكذا، والفكرة الأساسية في هذه النظرية، هي أن الكلمات تصبح ذات معنى، أو تكتسب معناها بواسطة عملية شبيهة بالعملية الشرطية conditional، فتُحدث الكلمة في هذه الحالة منبهًا بديلًا للمنبه الأصلي الذي يحدث الأثر نفسه (١٣).

ويستشهد دعاة هذه النظرية بالنجاح الذي حققه علماء النفس (السلوكيون) في التجارب التي أجريت على الطلاب مثل (تجربة بافلوف)، أي إنه كلما شرع أحد في تعلم معنى كلمة -كما يرى ريتشاردز- في كتابه "فلسفة الخطابة"، فإنه يكون في موقف يمكن النظر إليه من زاويتين أساسيتين:

١- زاوية السياق الفيزيائي (أي الموضوعات والأحداث الفيزيائية المحيطة به).

٢- زاوية السياق النفسي (أي الحالات العقلية والحادثات Events الموجودة في ذهن ذلك الشخص في ذلك الوقت).

وهذان السياقان عنده -أي ريتشاردز- مترابطان (١٤).

ويؤيد ذلك ما ذكره د. زكي عن الإدراك العلمي للأشياء -ويضرب هنا مثالًا على سلوك الكائنات الحية منها الإنسان- أنه يحاول إيجاد الوحدة المتجانسة

بينها، فإذا ما وجدها أمكنه بعد ذلك أن يحول أي ظاهرة سلوكية إلى عدد من تلك الوحدات، وإلى طريقة ركبت بها تلك الوحدات، بحيث لا يعود ثمة فرق بين سلوك الإنسان وسلوك الحيوان، إلا في الكم لا في الكيف، ولقد اهتدى الباحثون في علم النفس إلى ما يصلح أن يكون أساسًا للتجانس، ألا وهو "الفعل المنعكس"، فمهما يكن الظاهر السلوكي، فهو عدد من الأفعال المنعكسة بنيت بطريقة تحليلها ووصفها، لو تقدم العلم بما يكفي لذلك كله" (١٥).

فهكذا يستطيع الإدراك العلمي للأشياء إيجاد الوحدة والتجانس في السلوك الإنساني، بما في ذلك السلوك اللغوي الذي هو أحد ضروب السلوك بحسب تعريف الدكتور زكي لها.

يضاف إلى ما سبق أن الربط بين المعنى والسببية، معناه أن هناك علاقة بين المعنى والتفسير Explanation إذ إن علوم التفسير هي التي تخبرنا، لماذا أصبحت الأشياء على ما هي عليه، أو بمعنى آخر كيف أصبحت على ما هي عليه الآن، مثل هذه التفسيرات تقدِّم إجابة لعدد من الأسئلة الأساسية مثال:

كيف حدث ذلك؟ لماذا تغيرت الأشياء أو تطورت بشكل دون آخر؟ لماذا ومتى يحدث ذلك؟

مثل هذه الأسئلة تتناول المسببات: ما السبب في حدوث ذلك؟ (١٦) بحسب الرؤية التي يقدمها الفيلسوف هميل Humpel. فالتفسير، بعبارة فظة هو العثور على الأسباب التي من أجلها تقع الحواد أو هو البحث عن الشروط أو الظروف المحددة التي تعين وقوع الحوادث كما يقول "فايجل" (١٧).

إذا كان تفسير كلمة معينة هو عبارة عن التعريف بها، فما العلاقة إذن بين المعنى meaning والتعريف definition؟

إن التعريف في المنطق هو تحديد معنى اللفظ أو الحد، بحيث يصبح متميزًا عن معاني غيره غير مختلط بها، أي البدء بالكلمة أو الانتهاء بتعريفها أو معناه. غير أن د. زكي يقترح علاقة أخرى بين المعنى والتعريف، وهو أن يعكس المفكر طريق سيره بدءا بالمعنى لينتهي بالكلمة. وفي هذا شأن بألا يبقى بين أيدينا إلا الكلمات ذوات المعنى الحقيقي، فأرى اللون المعين قبل أن أقول كلمة "أحمر" وأذوق الطعم المعين قبل أن أقول كلمة "مر". وعلى هذا القياس انتظر حتى تأتيني حواسي بالعناصر التي أريد لها سما ثم اختار لها اسم "نفس" حتى إذا ما سئلت يعد ذلك ما معنى هذه الكلمة؟ قلت: هو العناصر الفلانية التي يمكن أن تراها العين أو تسمعها الأذن، أما إذا لم يكن هناك من هذه العناصر الحسية ما يريد التسمية، كففت عن استخدام الكلمة، وإلا استخدمتها بغير مسمى أي بغير معنى(١٨). أي أن الكلمة ومعناها من كائنات العالم الواقعية؛ وهذا يأتي اتساقًا مع رأيه، بأن علينا أن نتصور دنيانا الواقعة ذات شقين، في الكائنات والواقع من جهة؛ واللغة التي ترمز إليها من جهة أخرى (١٩).

هذا عن المعنى اللفظي، ولما كان الاتصال بالآخرين لا يتحقق إلَّا إذا استخدم اللفظ في سياق تركيبي مع غيره من الألفاظ، لتكوين عبارة من العبارات بشكل صريح أو ضمني لتعبر بذلك عن أصغر وحدة لغوية ذات معنى. فإنَّ حديثنا في الأسطر القليلة التالية عن المعنى السياقي للكلمة، وهي في طريقينا لتكوين جملة أو قضية، على اعتبار أنَّ القضية وحدة التفكير الأولى.

الكلمات والعبارات.. ومعانيها

قبل الشروع في الحديث عن العبارات أو القضايا، فلنعرض لأربعة أنواع للرموز أو الكلمات التي قد ترد في سياق معين، وعلاقتها بالواقع:

النوع الأول من هذه الكلمات هي "أسماء الأعلام"، أي الأسماء التي نطلقها على هذا الفرد من الناس أو ذاك، وهكذا، كاسم "العقاد" يميز فردًا من الناس دون سائرهم، واسم "النيل" يميز نهرًا معينًا واسم "المقطم" واسم "القاهرة"، إلى آخر هذه الأسماء الجزئية الفردية التي تقال إنَّها تشير بكل واحد منها إلى فرد واحد(٢٠). لكن نظرة تحليلية سرعان ما يتبين لنا أن ما قد ظنناه "فردًا" ليس هو في الحقيقة، إلَّا سلسلة طويلة من حالات جزئية، فليس "العقاد" فردًا، بمعنى أنَّه حالة واحدة معينة، كانت بالأمس هي نفسها ما هي عليه اليوم، وما ستكون عليه غدًا، فلقد كان "العقاد" طفلًا فشابًّا فرجلًا، وكان آنًا مريضًا وآنًا صحيح البدن، وكان آنًا في السجن وآنًا طليقًا.. هِي سلسلة من حالات لا ينتهي عددها إلى حد معلوم(٢١).

ومع ذلك فينبغي أن نكون على استعداد دائمًا إذا ما طلب إلينا أن نشير إلى المسمى الذي أطلقنا عليه اسمًا معينًا، كـ "العقاد" أو "النيل" أو "القاهرة"، أن نجد الحالة الجزئية التي نشير إليها قائلين "هذا" إشارةً إلى "النيل" مثلًا، فليعلم السائل أن لاسم "النيل" مسمى، وأنَّه لذلك رمز كامل على سبيل التجوز المقبول(٢٢). هذا يعني أنَّه لا بد أن يكون لكل اسم مسمى جزئي من دنيا الواقع ينطبق عليه، بحيث يمكن الإشارة إليه، غير أن د. زكي –شأنه شأن التحليليين– يعده رمزًا من الرموز الكاملة. و"الرمز الكامل" هو الرمز الذي نطلقه على مسمى جزئي معلوم(٢٣).

أمَّا النوع الثاني من الكلمات فهي: "الأسماء الكلية" مثل "إنسان" و"نهر" و"جبل" و"مدينة"... إلخ، وهو يرى أنَّها رموز ناقصة، أي إنَّ الكلمة كفيلة بوجود مسماها، إذ قد يستخدمها الناس استخدامًا يؤدي إلى الغرض المقصود كاملًا، ومع ذلك فقد لا يكون لها مسمى يقابلها في عالم الأشياء[٢٤]. فالاسم الكلي أو الكلمة العامة التي نطلقها، لا تدل على فرد بعينه، بل نطلقها لتدل على مجموعة من الأفراد تجمع بينها صفات مشتركة، هي في الحقيقة جملة بأسرها ضغطت في كلمة واحدة، ولو حللنا مكنونها وأخرجناها، لكان بذلك عبارة وصفية مجهولة الموصوف، وقد يكون هذا الموصوف الذي تشير إليه العبارة الوصفية المضغوطة في الكلمة الكلية، ذا وجود فعلي، وقد لا يكون له وجود، فكلمة "إنسان" مثلًا، تحليلها هو أن فردًا غير متعين صفاته هو كذا وكذا، مما يجعل الإنسان إنسانًا، لكن من هو هذا الفرد؟ الجواب هو: أي فرد تلقاه مما يوصف بهذه الصفات[٢٥].

ولكن قد تقول هناك أسماء مثل "عفريت" أو "جبل من الذهب"، لو بحثنا عن فرد يحقق الصفات المقصودة من الكلمة الكلية فلم نجد، ظلت الكلمة دالة على مجموعة من الصفات لا تجد ما يلبسها من أفراد العالم الخارجي، أي إنَّها تظل كالقالب الفارغ الذي لا يجد المادة المتعينة التي تملؤه[٢٦].

فالاسم الكلي العام شأنه في دلالته شأن العبارة الوصفية كائنة ما كانت، وليس شأنه في الدلالة شأن أسماء الأعلام التي يتحدد لكل اسم منها مسماه، غير أن العبارات الوصفية نوعان: فمنها ما ليست تنطبق الصفات الواردة فيها إلا على فرد واحد مثل قولنا: "أول الخلفاء الراشدين"، ومنها ما تنطبق الصفات الواردة فيها على أي فرد من مجموعة معينة، مثل قولنا "خليفة المسلمين"، وفي كلتا الحالتين لا تحتم العبارة الوصفية بذاتها أن تكون لها مسمى في عالم

الكائنات الفعلية، بل تدل على تركيبة وصفية قد تجد وقد لا تجد المسمى الذي يحققها في الوجود الفعلي(٢٧).

ويعد د. زكي أن هذه غلطة في التحليل زلَّت فيها الفلسفة طوال عصورها، لفداحة ما يترتب عليها من النتائج الخطيرة، فلا بد أن يكون هناك الكائن الفعلي الذي تنطبق عليه المجموعة الوصفية، بحيث يمكن الإشارة إليه بقولي "هذا" (٢٨) وسنعود للحديث عن الكلمات والقضايا الفلسفية فيما بعد.

خلاصة القول: إن الأسماء الكلية من قبيل كلمة "إنسان" التي قد تنطبق على "زيد" أو "عمرو" وغيرهم من بني البشر، فهي وإن كانت تنطبق على كائنات فعلية، فإنَّها –أي كلمة إنسان– لا تنطبق على فرد جزئي بعينه، لذا فهو يعدها من الرموز الناقصة.

وننتقل الآن إلى نوع ثالث من الكلمات، يعدها د. زكي أخطرها جميعًا من الناحية المنطقية، وإن لم تكن كلماته، ما يشير إلى شيء إطلاقًا في عالم الواقع، وأعني به تلك الكلمات التي تصل أجزاء الكلام بعضها بعضًا وصلًا تكون له دلالته في الاستدلال العقلي، ولا تكون له إشارة إلى شيء واقع، مثل واو العطف وكلمة "أو" وكلمة "إذا" وكلمة "ليس" وكلمة " كل" وكلمة "بعض" وما إليها، فليس في العالم الخارجي شيء بين "الأشياء" اسمه "أو" أو شيء اسمه "إذا"، فإذا قلت إنني "رأيت البرق وسمعت الرعد"، كان الذي حدث في عالم الواقع حدثان هما "رؤية" و"سمع"، وأما "و" التي تصل بينهما فلم تكن حدثًا ثالثًا ولم تكن جزءًا من أي الحديثين، وكذلك لو قلت: "الشمس إما طالعة أو غاربة"، كان الذي هو حادث في عالم الواقع أحد أمرين، ولما كنت أجهل أيهما، عبرت عن هذا الجهل بقولي "أو"، لكن عالم الأشياء لا تردد فيه، أن فيه أمرًا واحدًا، ففيه الشمس طالعة، أو فيه الشمس غاربة، وأما التردد فحالة عقلية عندي أنا القائل الذي يعلم أن أحد الأمرين، لا بد أنه واقع، ثم لا يعلم أيهما يكون (٢٩).

وهذه الكلمات تسمى بالكلمات المنطقية أو بالكلمات البنائية، لأن عملها مقصور على بناء العبارة اللغوية بناءً يجعل منها فكرة، أي تأطير الوقائع أي وضعها في إطار ما هو الذي يحدد صورة الفكرة، فكلمة "أو" مثلًا لا تكون شيئًا من الأشياء التي تحتل أجزاء المكان، ولكنها تكون علاقة تربط بها أقوالنا التي نقولها عن تلك الأشياء، إنني إذ أنظر إلى المنضدة أمامي وأقول "ليس القلم على المنضدة"، فلا أقول ذلك لأنني أرى "ليس" فيما أراه، بل كل ما أراه هو كتب وأوراق، إنني بكلمة "ليس" لا أسمي شيئًا أراه، وإنما استخدمها لاستدل نتيجة مما أراه أرى ما هو كائن هناك مما تنطبع صورته على حاسة البصر، ولست أرى ما ليس هناك، ولكني أستدله، وإذن يستحيل عليَّ أنْ أستعمل كلمة "ليس"، إلا إذا سبقت لي لغة أصف بها ما هو كائن فعلًا، ومِن ثَمَّ لا أستطيع أن استخدم النفي، إلَّا إذا سبقته معرفة إيجابية، هي معرفة ما تنطبع به الحواس(٣٠).

هذه هي الكلمات أو الروابط التي تساهم في بناء العبارة –أو القضية– ومِن ثَمَّ فهي تضع معطيات الواقع في إطار لتجعل منها فكرة معينة، ولتوضيح ذلك نقف عند إحدى هذه الكلمات مثل كلمة "كل" التي إذا وردت في سياق ما، أثَّر ذلك على صياغة القانون العلمي، فإذا كانت صورة القانون العلمي ترتد إلى هذه الصورة:

(كل أ هي أيضًا ب)، فلهذه الكلمة معان ثلاثة:

(١) المعنى الاستقصائي: الَّذي يراد به جميع أفراد النوع واحدًا واحدًا، فإذَا نظرت –مثلًا– إلى الكتب الموضوعة على رفوف مكتبي فوجدتها جميعًا –كتابًا كتابًا– كتبًا في الفلسفة أو قلت: (كل الكتب في هذه المكتبة فلسفية) كان معنى "كل" في هذا السياق هو الاستقصاء التام الذي

يحصر الأعضاء واحدًا واحدًا، وليس هذا المعنى هو ما تقصده عند استعمالها في صياغة القوانين العلمية.

(٢) المعنى الاحتمالي: وهو أن تخبر بعض الأفراد من نوع معين، فتحكم بما خبرته على ما لم تخبره من أفراد النوع كله، مثال ذلك أن تجري التجربة العلمية على عينة من الماء، وتراها مكونة من هيدروجين وأوكسجين بنسبة معينة، فتقول هذا عن الماء كله، والقوانين العلمية من وجهة نظر معينة، هي من هذا القبيل.

(٣) المعنى اليقيني: وهو الذي تستعمل به كلمة "كل" لتعني تعميمًا مطلقًا بغير قيد أو شرط، كقولنا "كل مثلث متساوي الأضلاع، متساوي الزوايا"، وواضح أننا لا نعتمد في مثل هذا الحكم المطلق على الخبرة الحسية، لأن الخبرة الحسية محدودة بزمان معين ومكان معين، ونحن هنا نطلق الكلمة إطلاقًا يحررها من حدود الزمان والمكان، ولهذا كان التحليل الصحيح للقضية التي ترد فيها كلمة كل بهذا المعنى المطلق، هو أنَّها قضية شرطية فكأنها نقول: إذا كان الشكل الهندسي مثلثًا متساوي الأضلاع، فيلزم عن ذلك أنه متساوي الزوايا، بغير تقرير منَّا أن هناك في الوجود الفعلي مثلثًا من هذا القبيل[٣١].

فمعنى كلمة "كل" إذن، يتحدد بناءً على استخدامها، وهذا يأتي متوافقًا مع نظرية "المعنى" أو "الاستخدام" (معنى التعبير يحدده استخدام هذا التعبير في اللغة، إن لم نقل إن معناه مطابق لاستخدامه في اللغة) [٣٢]. وهذا يعني أن معنى اللفظ جزء من معنى السياق بشكل كل، كما أن للسياق معنى يتحدد بناءً على معاني الألفاظ التي ترد فيه والعلاقات التي تبط بينها في بناء واحد، ومن هذين الأمرين المتكاملين يتحدد المعنى المرتبط بالسباق context اللغوي أو اللفظي نفسه[٣٣].

بقي لنا أن نتحدث عن النوع الرابع من الكلمات؛ وهو الكلمات التي تدل على قيمة خلقية أو قيمة جمالية، أو بصفة عامة الكلمات التي تدل على أن في المتكلم انفعالًا من نوع معين، لكنها لا تشير إلى كائن خارجي. ولنضرب مثلًا برجل وقف إزاء الشمس الغاربة بما تخلفه وراءها من أصباغ، فقال: هذا جميل، يقولها في أي صورة شاء، مثل لفظة: الله، أو لفظة: يا سلام ويريد بها نفس ما يريده إذ يقول "هذا جميل"، فأين مدلول هذه الكلمات؟ إن كلمة "جميل" وما يدور مدارها من كلمات، لا تشير إلى شيء قائم في عالم الأشياء الخارجية، بل تشير إلى حالة نفسية يحسها قائلها، فليس في الشفق "الجميل" إلا سحاب مصبوغ بألوان يمكن تحديدها بأطوال موجاتها الضوئية، وإنما " الجمال" فيها هو من نفس رائيها، وأذن فكلمة "جميل" دالة على حالة ذاتية عند فرد معين (٣٤).

قد يقال إن المسمى الموضوعي الخارجي الذي تشير إليه كلمة "جمال" حين يقال عن شيء ما أنه جميل، هو الوحدة العضوية التي تكون بين أجزائه، وأن هذه الوحدة العضوية هي العنصر المشترك بين الأشياء الجميلة كلها، فترى في قصيدة الشعر، وفي الزهرة، وفي المرأة وفي الجبل... فإذا كانت الوحدة العضوية في الشيء الجميل هي العنصر الموضوعي الخارجي الذي تشترك فيه الأشياء الجميلة كلها، فعندئذ تكون هي المدلول الذي تشير إليه كلمة "جمال" (٣٥).

والسؤال: هل تكون هذه الوحدة العضوية قائمة في الشيء، أم أنها صفة نخلعها عليه ونحن ننظر إليه من وجهة نظر تجعله بالنسبة إلينا كائنًا ذات وحدة عضوية، لماذا يكون التماثل في أجزاء البناء –مثلًا– علامة اتساق وتناغم وجمال؟ أليس ذلك لأنه شبيه بالإنسان في تكوينه المتماثل؟ وإذا يكون التماثل في البناء جميلًا، لأن نظرة الإنسان الخاصة هي التي جعلته كذلك (٣٦). إذن فصفة الجمال نضيفها على الشيء الجميل، لذا يرى د. زكي أن العبارة التي

تحتوي على كلمة جمال هي عبارة في الحقيقة تتحدث عمَّا ليس بحس أي أنها عبارة ميتافزيقية خالية من المعنى(٣٧).

ولكن ماذا عن العبارات الأخلاقية التي ترد فيها كلمات مثل "خير" و"واجب"؟

يرى د. زكي أن العبارات الأخلاقية والجمالية، هي عبارات بغير معنى؛ أي بغير واقعة خارجية، تكون من العبارة بمنزلة الأصل من صورته، يرجع إليه للنظر أن كانت الصورة صحيحة أو غير صحيحة، فهناك فرق بين قولنا "س أصفر" وقولنا "س خير "، فالعبارة الأولى صورة لأصل خارجي، ولك أن تطابق بين الصورة والأصل لتحكم بصدق العبارة أو كذبها ذلك أن كلمة "أصفر" لها في الاستعمال اليومي معنى، ولها في الاستعمال العلمي معنى آخر، وسواء أردت من عبارات الاستعمال الأول أو الاستعمال الثاني، فأنت في الحالتين كلتيهما واجد في الطبيعة الخارجية، ما ترجع إليه للتحقق من صدق العبارة، ففي الاستعمال اليومي تدل الكلمة على نوع خبرة بصرية مألوف ومتفق عليه، وفي الاستعمال العلمي تدل الكلمة على موجة ضوئية ذات طول معين، فالتحقق من صدق الوصف ممكن في الحالتين(٣٨).

لكن قارن ذلك بالعبارة الثانية "س خبر" فماذا ترجع إليه من صفات الشيء وعناصره لتعلم إن كان القول صوابًا أو خطأ؟ لا شيء، لأنك في حقيقة الأمر حين تصف الشيء بأنه "خير" فأنت إنما تضفي على الشيء ما في نفسك أنت من ميل إليه، لا ما يتصف به الشيء الخارجي نفسه من صفات.."(٣٩).

فالدكتور زكي يرى أن معنى "الجمال" أو "الخير" –مهما تعددت الآراء– هو في التأثر الداخلي الذي يتعرض له من يشهد شيئًا جميلًا أو يرى موقفًا خلقيًّا، مما حدا به القول إن العبارات الجمالية أو الأخلاقية هي من قبيل "العبارة اللغوية التعبيرية" والتي تكون منصرفة إلى إخراج ما يشعر به القائل داخل نفسه،

ما يستحيل على سواه أن يراجعه فيه لأنه شعور ذاتي خاص به، كشعوره بالألم أو باللذة مثلًا، وذلك تمييزًا لها عن "العبارة اللغوية التصويرية" –متفقًا مع الوضعيين المناطقة*– وهي ما أريد بها أن تصف شيئًا خارجًا عن ذات القائل، ولمن شاء أن يراجع هذا القائل في مطابقة الوصف على الشيء الموصوف، ليرى إن كان وصفًا صادقًا أو كاذبًا، وهذا التقسيم في استعمال اللغة، هو نفسه أم قصد إليه الأستاذ ريتشاردز "حين جعل اللغة إما تستعمل" استعمالًا علميًّا" أو "استعمالًا نفعيًّا" (٤٠)، لذا فإننا نجد "ريتشاردز" و "اوجدن" في كتابهما "معنى المعنى" يقولان "إن استعمال كلمة "خير" على هذا النحو الأخلاقي المتميز، إنْ هو إلا وسيلة للتعبير عن انفعال المتكلم، إذ إننا حين نستعمل الكلمة في مثل هذا السياق الأخلاقي فإنها لا تدل على شيء كائن ما كان، ولا يكون لها وظيفة رمزية (أعنى أنها تكون عندئذ رمزًا بغير شيء يشير إليه الرمز (٤١).

يعتقد "ستيفنسون" أن المعنى العاطفي قادرٌ على شرح كلٍّ من العلاقة بين قيمة الحكم والاتجاهات، واندماج اللغة والقيمة يستخدم في التأثير على الفعل، وبالنسبة للمعنى العاطفي، هو قوة الكلمات التي ينتج عنها حالات عاطفية واتجاهات عند الآخرين، لذا فقد أوضح "ستيفنسون" أن المعنى العاطفي لا يختلف جوهريًّا عمَّا أسماه "المعنى المعرفي"، فمن خلال نظريته عن السببية، أوجد نظريةً تتماشى تمامًا مع فكرته عن ضروب المعنى المختلفة، فيرى أن المعنى المعرفي يقابل أو يوازي التأثيرات المعرفية (المعتقدات والأفكار)، وبالمثل فإن المعنى العاطفي يقابل التأثيرات العاطفية (العواطف والاتجاهات) (٤٢)*. هذا يعني أن الكلمات الدالة على قيمة –مثل الخير والجمال– معناها العاطفي (أو الانفعالي) يقابل التأثيرات العاطفية عند الآخرين، أي إنَّ معناها ليس في الأفكار أو التصورات التي تحدثها الكلمات في الآخرين –ولكن فيما تحدثه من تأثيرات وجدانية– إنْ صحَّ التعبير.

فكأن د. زكي أراد أن يوضح لنا أن فكرة الخير أو الجمال، هي من الأفكار غير الواضحة، ولذا فإن الناس يختلفون في آرائهم إزاء الشيء الجميل أو العمل الأخلاقي، وذلك على عكس الأفكار الواضحة التي يتفق الناس إزائها، وهو في هذا يتفق مع "بيرس" الذي يرى أن الفكرة الواضحة هي ما يمكن ترجمته إلى سلوك، وما لا يمكن ترجمته على هذا النحو لا ينبغي أن تقول عنه إنه فكرة غامضة وكفى، بل هو ليس بالفكرة على الإطلاق، وفيما يلي أمثلة لما تريد "الصلابة" في الجسم فكرة واضحة، إذا كنت أعرف ماذا أعمل في الجسم لأتبين فيه ما أسميه بالصلابة، كأن أحاول خدشه بأجسام أخرى كثيرة، فلا ينخدش فأقول عندئذ أنه "صلب" واعدًا نفسي أنني قد فهمت فكرة "الصلابة" فهمًا واضحًا، لأنني عرفت ما نوع السلوك الذي أسلكه حين أريد ترجمة الفكرة إلى عمل، أما إذا وصفت شيئًا بأنه "خير" أو بأنه "جميل"، فلست أعرف ماذا أعمل فيه، بحيث يكون عملي هذا هو نفسه ما أسميه في الشيء بـ "الخير" أو بـ "الجمال"، ومن ذلك ترى أن كل مناقشة في هل هذا الشيء، خير أو ليس خيرًا، جميل أو ليس جميلًا، لن تؤدي إلى نتيجة، لأنها كلمات ليست دالة على سلوك، ومن ثم ليست دالة على معنى(٤٣).

وإذا كان د. زكي يتفق مع "بيرس" في أن كلمتي "الخير والجمال" من الأفكار غير الواضحة، فإنه يرى أن الخير قد يؤدي إلى السلوك الصحيح (فضيلة)، فالخير يقابله السلوك في حياة الإنسان الواعية، والجمال يقابله الوجدان، وهو يوضح ذلك في كتابه "فلسفة وفن"، إذ يعقد مماثلة بين ربان السفينة وبين القيم في الإنسان، وهي قيم يدركها بالفطرة حينًا، وحينًا تبث في نفسه بثًّا، وهي المعاني في رأسه التي تسيره، وفهم الإنسان على حقيقته هو فهم هذه القيم، وإنهم يقسمون هذه القسم ثلاثة أقسام كبرى تنضوي تحتها شتى المعاني التي تضبط مسالك الإنسان في خضم حياته، وهي: الحق والخير

والجمال في مقابل ثلاثة الأوجه التي يحللون بها حياة الإنسان الواعية، وهي: الإدراك والسلوك والوجدان، والغرض في الإدراك أن يكون صحيحًا لا مضللًا ولا مغلوطًا، حتى يجئ السلوك آخر الأمر على أساس سليم، من هنا كانت قيمة الحق في حياة الإنسان، وعلى الحق يبني الإنسان علمه، وعلى علومه يبني حياته المادية كلها، فهذا هو جانب الإدراك وما يلحقه من قيمة الحق، أما جانب السلوك الذي ينتهي به المطاف، فالغرض فيه أن يجئ سلوكًا محققًا لأهدافه، أي أن يكون سلوكًا سليمًا ملتزمًا بأهدافه والسلوك الصحيح "فضيلة". وهذا يعني السلوك الذي دلَّت خبرة الإنسان في تاريخه الطويل أنه خير ما يحقق الأهداف، والإنسان يقيس صواب السلوك بمقياس الخير الذي يترتب على فعله، فالخير إذن في قيمة السلوك الذي ترشده، وإن كان بين الإدراك والسلوك من ناحية أخرى حلقة وسطى هي الحالة الوجدانية فبغية الإنسان لنفسه أن تجيئ هذه الحالة الوجدانية، مما يشيع في نفسه الطمأنينة والرضا، فنراه على هذا الأساس يختار ثيابه ومسكنه وأثاث مسكنه ويفتن الفنون صوتًا ولونًا ونحتًا وعمارة، هي قيم ثلاث تدور عليها حياة الإنسان دوران الرحي حول قطبها وعنها تتفرع معان يضحي الإنسان، ولا يضحي بها [٤٤]. الخير إذن ذو معنى من حيث إنه يؤدي إلى سلوك ناجح؛ مخالفًا بذلك بيرس، وإن كان –أي د. زكي– يشاركه في المبدأ، وهو أن الكلمة أو الجملة تكون ذات معنى، إذا أمكن ترجمتها إلى سلوك.

خلاصة القول: إن الألفاظ الدالة على قيمة جمالية أو قيمة خلقية نسبية في مدلولاتها، ولا يقلل من نسبية الجمال وما إليه من قيم أن تجمع فئة كبيرة من الناس على جمال شي معين، بل لا يقلل من نسبيته أن يجمع العالم كله على جمال شي معين، لأن الأمر رغم ذلك الإجماع سيظل عرضًا قد يزول بغير وقوع في التناقض، فليس ما يمنع الناس من تحول تقديرهم للشيء فيقبح في أعينهم بعد جمال أو يجمل بعد قبح[٤٥]، مما يحدو بنا إلى القول إن هذه القيم

التعبيرية –نسبةً إلى صلتها باللغة التعبيرية– المعتبرة في ذاتها؛ تقع على عاتق الأسلوبية، ولكن لا يسع علم الدلالة تجاهلها من جراء كونها من أصول تبدلات المدني بعيد تطورها وإمحاء الحوافز البدئية منها(٤٦) وهنا يبرز دور الانفعال أي القوة الانفعالية أو العاطفية في تبدلات المعنى.

هذا عن الكلمات ومدلولاتها؛ ولكن متى تكون الجملة اللغوية ذات معنى؟

الجملة اللغوية كائنًا ما كان نوعها في رأي د. زكي، مؤلفة من عدد من الكلمات ومعناها مستمد من معاني كلماتها؛ ولا بد أن تكون بين هذه الكلمات وحدة تجعل بها رمزًا واحدًا له من الخصائص ما ليس للكلمات المفردة الداخلة في تكوينها. فأول ما يشترط ليكون للجملة معني هو أن تكون بين كلماتها رابطة توحد بينيًّا في رمز واحد له من الخصائص ما ليس لمفرداته، وذلك لأن ما يعده النحو جملة واحدة قد لا يكون كذلك من الناحية المنطقية؛ فمن الناحية المنطقية لا تكون الجملة جملة واحدة، إلا إذا كانت دراسة على واقعة بسيطة واحدة، ولا يستطيع من يريد مراجعة الكلام ليتحقق من صدقه، أن يحكم على الجملة بصدق أو بكذب، إلا إذا كانت جملة واحدة تقابلها واقعة بسيطة واحدة، وعندئذ يمكنه مراجعة الجملة على الواقعة، فيتبين صدقها أو عدم صدقها، فعبارة كهذه: "أبو بكر وعمر من الخلفاء الراشدين" ليست جملة واحدة بل جملتان هما: "أبو بكر من الخلفاء الراشدين" و"عمر من الخلفاء الراشدين"، ولا يتوقف صدق الواحدة على صدق الأخرى، وكل منهما يتطلب تحقيقًا يثبتها على حدة، أما قولنا "أبو بكر وعمر متساويان في الطول"، فهو جملة واحدة من الناحية المنطقية، لأن المرجع في صدقها واقعة خارجية واحدة .."(٤٧).

ويستطرد د. زكي في بيان أن وقائع العالم الخارجي التي ستراجع عليها الجملة للحكم عليها بالصدق أو بالكذب، فيوضح أن الواقعة الواحدة البسيطة

التي لا تنحل إلى ما هو أبسط مناه أنها واقعة "ذرية" –متفقًا في ذاك مع الوضعيين– مثل "رسل وفنجنشتين" (٤٨) *.

من هذا المنطلق نجد الدكتور زكي يرى أن الكلمات والعبارات الفلسفية والميتافيزيقية مرفوضة، لأنها ليست بذات معنى فلا يقابلها شيء من الخبرة الحسية أو المسميات الخارجية.

نقد الفلسفة والميتافيزيقيا من خلال الكلمة

لقد كان د. زكي ناقدًا للميتافيزيقا والفلسفة، من خلال هذه النظرة العلمية التحليلية التي تبناها، ولكن كيف كان ذلك؟ يرى د. زكي أن الكلمات والعبارات التي تتألف منها اللغة، رموزٌ اصطلح الناس على استخدامها بطريقة معينة ليتم التفاهم، فإذا وجدنا عبارة لا تؤدي هذا الذي خلقت من أجله، أعني لو وجدنا عبارة قالها قائلها ليفهم عنه السامع، ثم تبين أنها بحكم تركيبها يستحيل أن تنقل إلى السامع شيئًا، كان حتمًا علينا أن نرفض قبولها جزءًا من لغة التفاهم، وكان لا مندوحة لنا عن حذفها من جملة الكلام المفهوم(٤٩).

أما عن العبارات الميتافيزيقية، فيرى أن كل عبارة ميتافزيقية هي من أحد هذين النوعين؛ فهي إمَّا مشتملة على كلمة أو كلمات لم يتفق الناس على أن يكون لها مدلولها بين الأشياء المحسوسة، وإمَّا مشتملة على كلمة أو كلمات اتفق على مدلولاتها، لكنها وضعت في غير السياق الذي يجعلها تفيد معناها، وإذن فالعبارات الميتافزيقية فارغة المعنى، وليس لنا بد من حذفها(٥٠) ولنسوق مثالًا لتوضيح ذلك:

فكلمة "المطلق" لها معناها الذي اتفقنا عليه، فإن سألت الخادم: أربطت الكلب إلى سلسلته أم تركته مطلقًا؟ وأجابني الخادم، بل تركته مطلقًا، ارتسمت عندي صورة لما وقع، وفي مستطاعي أن أراجع الخادم فيما يقول.

هذا –أو شيء كهذا – هو معنى "مطلق" كما اتفقنا، فيجئ فيلسوف ميتافزيقي ليزعم "أن المطلق يدخل في تطور العالم وتقدمه"، ولكنه هو نفسه لا يطرأ عليه تطور أو تقدم، فلا يكون لعبارته معنى لأنه استخدم لفظًا متفقًا على معناه في غير السياق الذي يحفظ له ذلك المعنى، وإلا فحدثني ماذا عساي أن أجد في ظواهر الطبيعة كلها، مما يثبت هذا القول أو ينفيه؟ سأكون قلت لذلك الفيلسوف: لا، بل المطلق لا يدخل في تطور العالم وتقدمه، أو قلت له: لا بل المطلق نفسه يتعرض للتطور والتقدم، فما الذي يتغير في صوره بين حالتي الإثبات والإنكار؟ فالفارق واضح في عالم الأشياء بين قولي: "إن الكلب مطلق" وقولي "إن الكلب ليس مطلقًا"، فما دمت أدرك كيف تتغير صورة الأشياء بين حالتي نفي القول وإثباته، فالقول إما له معنى ومفهوم، وإلا فهو فارغ لا يدل على شيء(٥١).

ولنأخذ مثالًا على العبارات الميتافزيقية: "النفس الإنسانية كانت موجودة في عالم روحي قبل حلولها في الجسد"، كيف أفهم هذه العبارة فهمًا منطقيًّا سليمًا؟

لا بد أولًا من تحليل كلمة الموضوع، وهي "النفس" تحليلًا يبين المفردات الجزئية الواقعة في العالم الخارجي، التي تنطوي تحت هذه الكلمة، نلاحظ جيدًا أن الكلمة الكلية – كما أسلفنا لك الحديث– لا تسمى شيئًا بذاته، إنها ليست اسمًا يطلق على فرد كما تطلق أسماء الأعلام على أفرادها، هي في الحقيقة وصف تشترك فيه مجموعة أفراد، فينبغي أولًا أن تعثر على تلك المجموعة من الأفراد أو على واحد منها على الأقل، ونخترع له اسمًا عندنا، وليكن الرمز "س" ثم تقول إن "س" هذه التي يمكن أن أراها أو أسمعها أو ألمسها، هي من مجموعة

الأفراد التي أطلق عليها كلمة "نفس" ولكني حين التمس هذا القدر بين أفراد العالم الخارجي فلن أجد، وإذن فالوصف بكلمة "النفس" لا ينصرف إلى شيء، هذا فضلًا عن أن عناصر الوصف نفسها الدالة عليها كلمة "نفس"، لن تكون من بين عناصر التجربة الحسية، وبهذا تخلو تجربتنا الممكنة من الموصوفة وصفته على السواء، ففيمَ الحديث؟"[٥٢].

وأخيرًا فهو يرى أن الميتافيزيقا نشأت من غلطة أساسية، وهي الظن بأنه ما دامت هناك كلمة في اللغة، فلا بد أن يكون لها مدلول ومعنى، وكثرة تداول اللفظة، ووجودها في القواميس، يزيد الناس إيمانًا بأنها يستحيل أن تكون مجرد ترقيم أو مجرد صوت بغير دلالة، لكن التحليل يبين لك أن مئات من الألفاظ المتداولة والمسجلة في القواميس، هي ألفاظ زائفة، أو هي "أشباه ألفاظ"، كما يسميها رجال الوضعية المنطقية، وما أشبه الأمر هنا بظرف يتداوله الناس في الأسواق مدة طويلة على أنه يحتوي على ورقة من ذوات الجنيه، حتى يكتسب الظرف قيمة الجنيه في المعاملات ليستوثق من مكنونه ومحتواه، وإذ هو فارغ وكان ينبغي أن يبطل البيع به والشراء، لو تنبه الناس إلى زيفه من أول الأمر"[٥٣].

هكذا كان الدكتور زكي ناقدًا للفكر* من خلال نقده للميتافيزيقا، إذ إنه كان يحلل الفكرة فيجدها بحكم تكوينها اللفظي نفسه أو السياق الذي وردت فيه، لا تحمل معنى على الإطلاق، لأنه يجد استحالة منطقية في أن تشير إلى أي وجود في العيان الخارجي. فالفكرة لتكون ذات معنى، إما أن تشير إلى "شيء" من معطيات الحس، أو إلى صورة من صور السلوك.

وكان هذا أساس نقده للفلسفة أيضًا، غير أنه يرى أن الفلسفة –بمعنى التحليل– ضرورية لتوضيح القضايا العلمية والعبارات الجارية في الحياة اليومية. أما الميتافيزيقا –بمعنى الحكم على أشياء غير محسوسة– واجبة الحذف من دائرة

المعارف الإنسانية(٥٤). وهو يبدأ نقده للفلسفة بعرض موضوعات الفلسفة، فقد جعلت الفلسفة أشياءها التي تبحث فيها، غير تلك، إذ جعلتها أحد نوعين: فإما هي "أشياء" لا تقع في الخبرة الحسية مثل "الشيء الذي في ذاته و"المطلق" و"العدم" و"القيم"، وعندئذ كان بحثها بالميتافيزيقا –وهي ما توقفنا عندها– وإما أشياء مما نصادفه في مباحث العلوم الأخرى كالإنسان والمجتمع واللغة والتاريخ والاقتصاد والمكان والزمان والسببية، لكنها تعالجها بغير الطريقة التي تعالجها بها العلوم. وعندئذ كانت تسمى بحثها فلسفة طبيعية، أو فلسفة التاريخ، أو فلسفة اللغة، وهكذا(٥٥).

ولنقف عند أحد هذه الموضوعات الذي يتعلق بعلم الطبيعة، وهو "السببية"، وهي النسبة أو العلاقة بين العلة والمعلول، وينص مبدأ السببية causality على أن لكل سبب وفي الشروط نفسها، النتيجة اللاحقة نفسها. ولقد احتلت مشكلة السببية مكانةً كبيرةً في الفكر الفلسفي، بدءًا من "أرسطو" الذي تناول موضوع السببية –أو العلية– بالبحث، لأن مهمة علم الطبيعية –في رأيه– هي معرفة أسباب ما يحدث فيها من تغير، وعنده أن هذه الأسباب أربعة أنواع: العلة المادية، والعلة المحركة، والعلة الصورية، والعلة الغائبة، وليست هذه العلل تتعاقب على الشيء الواحد، بل أنها جميعًا تعمل معًا في كل حالة من حالات الوجود(٥٦).

لقد كان "دافيد هيوم" (١٧١١– ١٧٧٦) أول فيلسوف أوروبي* نقل فكرة العلية أو السببية من معانيها الأرسطية، إلى معنى التتابع المجرد بين السبب والمسبب، أي التتابع الذي لا يعني شيئًا أكثر من أن السبب سابق على مسببه، فيما دلت عليه التجربة، وقد كان يمكن عقلًا أن يجيء الترتيب على صورة أخرى، لكنه هكذا جاء(٥٧).

ولقد تعرضت فكرة السببية لكثير من أوجه النقد –حتى على الصورة التي تركها هيوم– أن الأسبقية بين السبب والمسبب ليست محددة المعنى تحديدًا واضحًا، فهل هي تقتضي وجود فترة زمنية بينهما؟ إن كان ذلك كذلك، فمهما بلغت تلك الفترة من القصر فهي تفصل السبب عن المسبب، فصلًا يتنافى مع اتصال مجرى الأحداث في الطبيعة، وعلى أي أساس ننتقي إحدى الحادثات التي تسبق المسبب لنجعلها سببًا؟ هذه –مثلًا– نار اشتعلت في قطعة الورق حين أدنينا منها عودًا من الاتفاق، فنقول –إذن– إن عود الثقاب هو السبب في اشتعال الورقة؟ لكنه لولا وجود الأكسجين في الهواء، لما أشعل الثقاب الورقة، ولولا قابلية الورق للاحتراق لما حدث الذي حدث وهكذا(٥٨).

وهنا يذكرنا الدكتور زكي مرةً أخرى بالفارق بين نظرة الإدراك الفطري إلى السببية، بأنَّها علاقة بين حادثين مفردين مستقلين، وبين النظرة العلمية التي ترجع الحادثين معًا إلى مجموعات من تفاعلات، فإذا بالحادثين يندمجان معًا في خط واحد من الحوادث، هو من أبرز الفروق بين القديم والحديث في وجهة النظر إلى الطبيعة وإلى الكائنات(٥٩).

فالدكتور زكي يرى أنه لا بد إذن من تعديل فكرتنا عن التتابع، الذي يكون بين السبب والمسبب، بحيث نسد الثغرات التي كنَّا نفترض وجودها في سلسلة الأحداث، وذلك بتحليل الحوادث إلى مقوماتها الصغرى، ولو فعلنا ذلك لأنساب السبب في مسببه انسيابًا يجعلهما خيطًا متصلًا، فالحادثات الصغرى في الخيط السببي، أشبه بالنقط التي منها يتكون الخط المستقيم، وليست هي كالخرزات – مثلًا– موضوعًا بعضها إلى جانب بعض. ولو كانت هكذا، لكان بينها فجوات على نحو ما أسلفنا، لكننا إذا ما أدمجنا السبب في المسبب، وجعلهما سيرة واحدة متصلة الحلقات، أصبح من التعسف أن نرسم حدًّا فاصلًا نقول إن ما قبل هذا الحد الفاصل نعده سببًا، وما بعد الخط نعده مسببًا"(٦٠).

وينتهي الدكتور زكي إلى القول: بأنه ليس أمامنا إلا أن نغض النظر عن فكرة السببية إطلاقًا، فما يساعدنا على هذه السطحية طريقة استخدامنا لألفاظ اللغة في الحديث المألوف. فنحن نطلق كلمةً واحدةً على أفراد النوع الواحد، فنحسب بعدئذ أن تلك الأفراد ما دامت قد اشتركت في اسم واحد.. فلم نعد كلمتا "سبب" و"مسبب" صالحتين كل الصلاحية في مجال البحوث العلمية، لأنهما كثيرًا ما يحملان معهما طرائق الإدراك الفطري في رؤية الأشياء على أنها كيانات مستقلة بذواتها، فلا بد أن تحل فكرة "القانون" محل فكرة "السببية"، فلا يكون البحث عن شيء يعد سببًا لشيء آخر، بل يكون البحث عن دالة رياضية، تبين العلاقة بين مجموعة من المتغيرات(٦١).

هذه كانت معالجة د. زكي لإحدى مشكلات الفلسفة، وفي مشكلة السببية جعل المعنى علة للمعلول – كما سبقت الإشارة– وكلاهما من الأشياء المحسوسة، ففي مقاله السابق؛ الورقة وعود الثقاب من الأشياء، أما احتراق الورقة فليس فيها فقط، بل هو اقتراب عود الثقاب منها، بل أن الهواء يحتوي على أكسجين، بالإضافة إلى قابلية الورقة للاحتراق؛ فحلل الواقعة –أو الحادثة على حد تعبيره – إلى عواملها تحليلًا علميًّا، فربط بين المعنى والتفسير العلمي، وهذا يتسق مع الروح العلمية التي تبناها، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن تفسير د. زكي لفكرة السببية وأن الحادثات الصغرى في الخيط السببي أشبه بالنقط التي منها يتكون الخد المستقيم، إلى آخر ما ذكرناه، اقترب في تفسيره من تفسير "جورج سانتيانا"، أحد رواد الواقعية الأمريكية الذي يرى أن سيال الحوادث في الطبيعة المادية قد يجري على نسق معين آنا بعد آن. فإذا حدث التكرار في وقوع النسق الواحد، كان ذلك قانونًا طبيعيًّا، دون أن يكون الاطراد "ضروريًّا" يقتضيه منطق العقل اقتضاء، لا مفر منه؛ ذلك لأن كل نسق من الحوادث، أو كل سلسلة منها تكون وحدة، إنما تحدث –إذا تحدث– حدوثًا تلقائيًّا بغض النظر عن أن تكون

مسبوقة بأشباه لها أو غير مسبوقة، وهذا معناه "أنه لا ضرورة في العلاقة القائمة بين السبب والمسبب، ولا يقين بأن القانون (الطبيعي) ثابت"(٦٢).

هذه هي مهمة الفلسفة كما يرى الدكتور زكي، وهي تحليل الألفاظ والعبارات التي يستخدمها العلم أو التي يستخدم في الحياة اليومية، ولكن تحليلها للغة يأتي من حيث بنائه المنطقي العام، ومن حيث هي رموز إلى أشياء العالم الخارجي، فلكي تصبح الفلسفة علمية، عليها إذن أن تقنع بذلك، فتكون وسيلة تتخلص بها اللغة من بعض الاستخدامات الخاطئة التي أدت إلى كثير من المشكلات الفلسفية –المزعومة في رأيه– فتصبح اللغة السائدة هي لغة العلم، فتكون اللغة بذلك بداية جديدة، أو منها تبدأ ثورة التجديد، كما عبر عن ذلك في كتابه "تجديد الفكر العربي".

ولكن هل يمكن للفلسفة أن تنتظر قضايا العلم ونتائجه لتمارس مهمتها التحليلية، لا.. لا يمكن أن تصبح الفلسفة مجرد تابعة للعلم الذي كثرت فروعه أو علومه الجزئية، فأصبح كل عالم غارقًا لأذنيه في تفاصيل تخصصه، فلا بد إذن من الإطار العام أو الكلي الذي سلَّم بكل الجزيئات، فيقدم لنا رؤية كلية شاملة، وهذا هو ما تؤديه لنا الفلسفة، فتصبح بذلك متكاملة مع العلم* وليست وصيفة أو تابعة له.

نتائج البحث

الإنسان "حيوان ناطق"، هكذا عُرف الإنسان منذ زمن بعيد؛ فاللغة إذن هي التي تميزه عن الحيوان، لذا كانت حاملةً لأفكاره واتجاهاته وآرائه، ومن ثم أصبحت اللغة الوعاء الثقافي الذي يحتوي على الأديان والفلسفات والأيديولوجيات، والعلم بكل فروعه، وغير ذلك من التشكلات الثقافية. وإنْ كان الإنسان يمارس فعل الكلام، فلا بد أن تكون كلماته مفهومة أو ذات معنى بالنسبة للآخرين، سواء على مستوى لغة الفهم أو لغة التفاهم، فالمهم أن يكون لها "معنى"، من هنا برزت أهمية مفهوم المعنى إلى ساحة الحوار بين اللغويين وفلاسفة اللغة. ولقد كان أيضًا محور اهتمام فيلسوفنا "زكي نجيب محمود" على أساس أن معنى الكلمة إما أن يكون شيئًا وإما صورة من صور السلوك؛ لذا فإن لنا بعض الكلمات عن تناوله لهذا المفهوم.

١- لقد قدَّم الدكتور زكي تعريفًا للغة "أنها ضرب من ضروب السلوك" الذي يبعد به عن التعريفات التقليدية للغة، وهو يلتقي في ذلك مع أصحاب النظرية الإجرائية أمثال بيرس وجون ديوي، والتي ذهبت إلى أن معنى اللفظ أو العبارة هو الذي يوجه الإنسان أو يرشده إلى نوع السلوك، أي إن معنى الكلمة أو العبارة إنما يقع بأسره في حدود دلالتها، على ما يمكن أن يؤدي في الحياة السلوكية بنجاح – كما عبَّر عن ذلك بيرس- وتأييد الدكتور زكي لهذه النظرية قد ظهر بوضوح في تناوله للكلمات الدالة على قيم خلقية أو جمالية، فهو يعدها بلا معنى، إلا من حيث السلوك الذي يترتب عليها، وخاصة القيم الخلقية.

٢- كما أن تناول الدكتور زكي مشكلة السببية، وربطه إياها بالمعنى، ومن ثم التفسير العلمي، يقترب بذلك من نظرية السببية التي تعد السلوكية هي إحدى صورها والتي تنظر -أي السلوكية أو الجشطالت- إلى

الظواهر لا على أنها مجموعة من العناصر التي يراد عزلها وتحليلها وتشريحها، بل على أنها مجاميع مترابطة تؤلف وحدات مستقلة وتكشف عن تضامن باطن، ولها قوانينها الخاصة، وينتج عن هذا أن حال كل عنصر يتوقف على بينة المجموع المترابط والقوانين التي تحكمه، فيما يقول د. بدوي في كتابه "مدخل جديد إلى الفلسفة". وهنا تحدث مشابهة بين هذه النظرية تهدف إلى بيان أن اللغة محكم مترابط الأجزاء، كما رأينا عند "دي سوسير"، لذا فإن د. زكي قد احتكم إلى هذه النظرية –أي السلوكية– لإيضاح ما يحدثه الإدراك العلمي للأشياء في إيجاد وحدة متجانسة في السلوك عامة والسلوك اللغوي خاصة.

ولعل التقاء د. زكي في الرأي مع هاتين النظريتين –أي السببية والإجرائية– يرجع إلى أن كلًّا منهما يتسم بروح العلم، التي هي روح العصر، التي يعشقها الدكتور زكي، والتي أتت التجريبية العلمية، كما يحلو للدكتور زكي أن يسميها، ترجمةً فعليةً لها.

٣- عدَّ الدكتور زكي أسماء الأعلام رموزًا كاملة، في مقابل الكلمات الكلية التي هي رموز ناقصة، على اعتبار أنها تشير إلى مسميات جزئية، ولكن ماذا لو قلنا إن اسم "باريس" مثلًا يطلق على أكثر من منطقة في العالم، فهذا يمكن اعتبارها رمزًا ناقصًا، لأننا عندما نقول "باريس" لا نعرف أي منطقة هل المقصود هي باريس عاصمة فرنسا –وإن كانت هي أبرز هذه المناطق– أم باريس أخرى؟! إذن فلا يمكن اعتبار أسماء الإعلام رموزًا كاملةً على الإطلاق.

٤- نقد الدكتور زكي الفلسفة والميتافيزيقا من منطلق أن كلماتها ليست دالة على مسميات خارجية، مثل لفظة "مطلق"، ولكننا نرى أن كلمة "مطلق" لها معنى في السياق الذي وردت فيه، فالفيلسوف يحدد مصطلحاته في

إطار فلسفته. كما أنه ليس بالضرورة أن كل كلمة لها ما يقابلها في العالم الخارجي لكي يعطيها معناها، على أساس أن هناك توازيًّا بين اللغة والواقع، وإن كان هذا صالحًا في مجال العلوم الطبيعية، فإنه لا يتماشى مع طبيعة العلوم الإنسانية مثل الفلسفة والتاريخ وغيرها. فهو يحبس بذلك –متفقًا مع الوضعيين– المعاني في إطار العالم الحسي، فالتصور هو المرجع يتعلق بالمرجع، سواء بالنسبة للفلسفة أو غيرها من العلوم الإنسانية هذا من ناحية، من ناحية أخرى فإن الدكتور زكي لم يكن موضوعيًّا في نقده، حيث إن الموضوعية –من جهة دلالاتها القيمية– هي التخلي عن الميول والأهواء الشخصية، وهو قد انتقد الفلسفة والميتافيزيقا من منطلق ميله إلى اتجاه التجريبية العلمية، التي أرادت للفلسفة لأن تكون علم المعاني، مما دفع الكثير إلى توجيه التجريبية العلمية، التي أرادت للفلسفة أن تكون علم المعاني، ما دفع الكثير إلى توجيه انتقادات لها، ولعل هذا ما دعا الدكتور زكي إلى التخلي عنها في بعض المواضع، كالتي أشرنا إلى بعضها في طيات البحث.

ختامًا لحديثنا، نستطيع أن نقول إن "المعنى" عند الدكتور زكي نجيب محمود هو – إما أن يشير إلى شيء من الأشياء، أو صورة من صور السلوك، فيأتي هذا اتساقًا مع الروافد التي أسهمت في تشكيل فكرة، منها البرجماتية والسلوكية والواقعية الأمريكية، بالإضافة إلى التجريبية العلمية، بوصفها رافدًا رئيسيًّا لهذا الفكر المتدفقة.

الهوامش

(١) دكتور زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي. دار الشروق ن بيروت. ط أولى ١٩٧١ وكلمة ص ٢٦٢، ٢٦٣.

(٢) دكتور زكي نجيب محمود: بذور وجذور، دار الشروق، بيروت ط أولى ١٩٩٠ ص ١٦٣. يضاف إلى ذلك تعريف زكي نجيب لفلسفة اللغة بأنها "الحفر وراء هذه التركيبات والتصريفات، لعلي أقع على جذور عنها انبثقت، كان ذلك هو فلسفة اللغة". تجديد الفكر العربي ص ٢٦٣.

* يعرف ابن جني اللغة بأنها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم". انظر ابن جني: الخصائص. ومن التعريفات الحديثة التي توضح طبيعة اللغة تعريف دي سوسير "أن اللغة عبارة عن نظام، ولئن كانت هذه الخاصية هي ما يجعل اللغة غير اعتباطية تمامًا، إذ نلاحظ فيها صيغة عقلية نسبية، فهي كذلك تمثل النقطة التي يظهر فيها عدم كفاءة الجمهور لإلحاق التغيير باللغة، وذلك أن هذا النظام يمثل أولية معقدة، ولا يمكن إدراكه إلا بأعمال الفكر. انظر دي سوسير "دروس في الألسنة العامة". تعريب صالح الفرماوي وآخرين، تونس الدار العربية للكتاب ١٩٨٥، ص ١٩.

(٣) د. زكي نجيب محمود: المنطق الوضعي، ج ٢، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٥، ص ١٩٨٠، ص ٩.

** هناك من يعرِّف الإدراك perception بأنه العملية التي يتم من خلالها استقبال المنبهات وتفسيرها في ضوء الخبرة السابقة، وتتضمن غالبًا إخماد أو تأكيد لبعض الجوانب في المنبه المركب، حتى يمكن الوصول إلى اتساق إدراكي.

(4) R.W. Payre: Cognitive abnormalities in H.J. Eysnek (ed): Book abnormal psychology. London,. Pitman, 1973, p. 922

* لمزيد من التفاصيل عن اللغة العلمية وطبيعتها: انظر: محمد كامل حسين: متنوعات ج ٢ القاهرة مطبعة مصر. دون تاريخ، ص ١٢٦، أيضًا: جان ستاروبنسكي: اللغة الشعرية واللغة العلمية، مجلة الفكر العربي المعاصر– الصادرة عن مركز الإنماء القومي ببيروت ع / ١٠، شباط ١٩٨١، ص ١٣٧.

(٥) د. زكريا إبراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، ج ١ مصر مكتبة ومصر. دون تاريخ، ص ٣٢. وأيضًا د. زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد، القاهرة، بيروت دار الشروق ط ٢. ١٩٨٢، ص ١٢٢. وعن البرجماتية انظر: وليم جيمس: البرجماتية: ترجمة د. محمد على العريان، تقديم د. زكي نجيب محمود، القاهرة، نيويورك مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٥، ص ٦٤ وما بعدها.

(٦) د. زكي نجيب محمود: نحو فلسفة علمية، ص ٨٨، ٨٩.

(٧) نفسه، ص ٨٩.

* لمزيد من التفاصيل عن الرموز اللغوية، انظر: مصطفى مندور: اللغة والفكر، القاهرة، مكتبة الشباب ١٩٩٣، ص ١١٢- ١١٣

(٨) انظر د. عزمي إسلام: مفهوم المعنى. الكويت. ضمن حوليات كلية الآداب الحولية السادسة ١٩٨٥، ص٣١، كما نود أن نشير إلى أن هذه النظرية لها أنصار من المعاصرين مثل كلٍّ من "سابير" ودي سوسير والأولمان ونيلور، فقد ذهب "دي سوسير" مثلًا أن تحول العلامة الصوتية إلى دالة أو اسم دال؛ إنما يتم عن طريق المواضعة في المعنى واضحة. انظر دي سوسير: دروس في الألسنية العامة ص ٢٨، كما أنه وقف باستفاضة أمام مبدأ اعتباطية الدليل اللغوي. دروس في الألسنية العامة ص ١١١ وما بعدها.

(٩) د. زكي نجيب محمود: نحو فلسفة علمية، ص ٨٢، ٨٣.

(١٠) المرجع السابق، ص ٨٣.

* * جدير بالذكر أن "دي سوسير" قد أشار أيضًا إلى تلك العمليات الفسيولوجية والحركات العضلية المصاحبة لنطق الكلمات، كما أنه يشير إلى أن اللغة صورة شفوية مستقلة عن الكتابة، وأكثر منها ثباتًا بكثير، ولكن تعظيم الناس للصورة المكتوبة يمنعهم من تبيين ذلك. لمزيد من التفاصيل انظر: دي سوسير: المرجع السابق، ص ٣- ٥٠.

* سميت هذه الحركة الفلسفية المعاصرة بهذا الاسم، لأن أنصارها "وضعيون"، بمعنى أنهم كالعلماء يريدون للإنسان أن يقف بفكره عند الحدود التي يستطيع أن يقيم علمه على تجاربه وخبرته. انظر د. زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم في الجديد، ص ٢٣٤، ولمزيد من التفاصيل عن الوضعية المنطقية. انظر: د. زكريا إبراهيم: دراسات في الفلسفة المغامرة ص

٢١٢٣ وما بعدها، ص ٢٨٤ وما بعدها، بوخنيسكي: تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، ط١، ليبيا مكتبة الفرجاني، دون تاريخ، ص ١٠٤ وما بعدها.

** لفظة "معنى" مشتقة من الفعل عنى الذي بوء خذ بمثابة اظير إذا ما نسب إلى الأشياء، أما لفظة "معنى" نوء خذ بمثابة ما يقصد بشيء الكلمة هو مدلولها؛ و"معنى الكلام" هو مضمونه. لمزيد من التفاصيل عن كلمة "معنى" انظر: معنى زيادة الموسوعة الفلسفية العربية مجلد أول ط بيروت ١٩٨٦، ص ٧٦٤ وما بعدها.

(١١) د. زكي نجيب محمود: نحو فلسفة علمية، ص ١١٥، ص ١١٦.

* سنتحدث تفصيلًا عن رأي د. زكي في السببية في موضع آخر من البحث.

(١٢) لمزيد من التفاصيل. انظر د. زكي إسلام: مفهوم المعنى، ص ٣٤ وأيضًا:
Danil M. Taylor. Explanation & meaning an introduction to philosophy Cambridge University Press 1970, p. 112

(١٣) لمزيد من التفاصيل انظر: د. عزمي إسلام: مفهوم المعنى، ص ٣٦، ٣٦.

(١٤) أيضًا انظر: Danil. M. Taylor, Op. Cit., p. 120

(١٥) د. زكي نجيب محمود: المنقط الوضعي، ج٢، ص ١٣، ١٤.

[16]Daniel,. M. Taylor, Op. Cit., p. 4

(١٧) د. صلاح قنصوة: فلسفة العلم، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٨٠، ص ١٤٨.

(١٨) د. زكي نجيب محمود: نحو فلسفة علمية، ص ١٠.

(١٩) نفسه، ص ١١٦.

(٢٠) د. زكي نجيب محمود: نحو فلسفة علمية، ص ٩٣.

(٢١) المرجع السابق، ص ٩٤.

(٢٢) المرجع السابق، ص ٩٣.

(٢٣) المرجع السابق، ص ٩٣.

(٢٤) د. زكي نجب محمود: نحو فلسفة علمية، ص ٩٥.

(٢٥) المرجع السابق، ص ٩٥.

(٢٦) المرجع السابق، ص ٩٥.

(٢٧) المرجع السابق، ص ٩٦.

(٢٨) المرجع السابق، ص ٩٦.

(٢٩) د. زكي نجيب محمود: المرجع السابق، ص ١٠٠.

(٣٠) المرجع السابق، ص ١٠٥، ١٠٦

(٣١) د. زكي نجيب محمود: المنطق الوضعي ج٢، ص ٢٨٣، ٢٨٤.

(٣٢) جون لاينز: اللغة والمعنى والسياق، ترجمة د. عباس صادق عبد الوهاب، العراق، دار الشئون الثقافية العامة "آفاق عربية" ط١، ١٩٨٧، ص ٣٢ وانظر أيضًا: د. عزمي إسلام، مفهوم المعنى، ص ٦٦.

(٣٣) د. زكي نجيب محمود: نحو فلسفة علمية، ص ١٠٨.

(٣٤) المرجع السابق، ص ١٠٨.

(٣٥) المرجع السابق، ص ١١١.

(٣٦) المرجع السابق، ص ١١١.

(٣٧) د. زكي نجيب محمود: موقف من الميتافيزيقيا ط ٢، بيروت، دار الشروق ١٩٨٣، ص ١١١

(٣٨) المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٣٩) المرجع السابق، ص ١٢٠.

* عن اللغة التعبيرية واللغة التصويرية عند الوضعيين، راجع: عزمي إسلام: ك فيج فنجنشتين مصر دار المعارف، دون تاريخ، ص ١٥٦، وأيضًا د. عزمي إسلام: مفهوم المعنى، ص ٨٦.

(٤٠) د. زكي نجيب محمود ك موقف من الميتافيزيقا، ص ١١٢، ١١٣.

(٤١) المرجع السابق، ص ١٢٧.

[42]Daniel, M. Taylor, Op Cit. p.119

* أيضًا عن المعنى انظر: جوتلوب فريجة: المعنى والمرجع في كتاب المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث، فريحة، آدم شاف وآخرين، ترجمة وتعليق، عبد القادر قنيني، المغرب، أفريقيا الشرق، ص ٨٥.

(٤٣) د. زكي نجيب محمود ك موقف من الميتافيزيقيا، ص ١٢٢

وأيضًا د. زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد، ص ١٢٦.

(٤٤) د. زكي نجيب محمود: فلسفة وفن، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣، ص ٦٤، ٦٦.

(٤٥) د. زكي نجيب محمود: نحو فلسفة علمية، ص ١١٣ وعن نسبية القيم، انظر د. صلاح قنصوة، نظرية القيم في الفكر المعاصر، القاهرة، دار الثقافة ١٩٨١، ص ٤٦.

(٤٦) بيار جيرو: علم الدلالة ترجمة أنطوان أبو زيد بيروت باريس، منشورات عويدات ١٩٨٦، ص ٧٨، ٧٩.

(٤٧) د. زكي نجيب محمود: نحو فلسفة علمية، ص ١٢٧– ١٢٩.

(٤٨) المرجع السابق: ص ١٢٧– ١٢٩.

* عن فلسفة رسل التحليلية، راجع د. ماهر عبد القادر فلسفة التحليل المعاصر، بيروت دار النهضة العربية ١٩٨٥، ص ١٥٧ وما بعدها، وعن فنجنشتين انظر: لدفيج فتنشتين د. عزمي إسلام ص ١٣٧ وما بعدها.

وعن رسل وفنجنشتين انظر أيضًا: د. زكريا إبراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة ج١، ص ١٩٢ وما بعدها، ص ٢١٧ وما بعدها.

وعن اتجاه الوضيعة أو التجريبية العلمية انظر: د. زكي نجيب محمود، قصة عقل، ط ١ بيروت، القاهرة، دار الشروق ١٩٨٣، ص ٩٤، ٩٥ وما بعدها.

أيضًا د. عبد الرحمن بدوي: مدخل جديد إلى الفلسفة، الكويت وكالة المطبوعات ط ٢، ٧٩ ص ٢٤٦.

(٤٩) د. زكي نجيب محمود: موقف من الميتافيزيقا: ص ٤.

(٥٠) المرجع السابق، ص ٥.

(٥١) المرجع السابق، ص ١٤.

(٥٢) د. زكي نجيب محمود: موقف من الميتافيزيقا، ص ١٠٢.

(٥٣) المرجع السابق، ص ١٠٥.

* عن نقد د. زكي مجيب محمود للفن والأدب انظر د. زكي نجيب محمود: فلسفة النقد، ط١ بيروت – القاهرة– دار الشروق، ١٩٧٩، ص ٢٥ وما بعدها، ص ١٢٠ وما بعدها.

(٥٤) د. زكي نجيب محمود: موقف من الميتافيزيقا، ص ٢١، ٢٢.

(٥٥) د. زكي نجيب محمود: موقف من الميتافيزيقا، ص ٢١، ٢٢.

(٥٦) د. زكي نجيب محمود: المنطق الوضعي، ج٢، ص ٢٦٨

* كان للإمام الغزالي (١٠٥٨- ١١١١) رأي في السببية سبق به هيوم، وهو أن العلاقة السببية لا تزيد على تتابع بين السبب والمسبب، فهو يقول: أن الاقتران ما يعتقد في إعادة سببًا وما يعتقد مسببًا ليس ضروريًّا عندئذ، فالعلاقة السببية عنده ليست من ضرورة محتومة بحكم العقل، بل هي تتابع يقر في التجربة وتتعوده، فنتوقع التابع إذا وقع المتبوع، لمزيد من التفاصيل، انظر كتابيه: المنقذ من الضلال، وتهافت الفلاسفة.

(٥٧) د. زكي نجيب محمود: المنطق الوضعي ج٢، ص ٢٧١.

(٥٨) د. زكي نجيب محمود: المنطق الوضعي ج٢، ص ٢٧١.

(٥٩) المرجع السابق، ص ٢٧٢.

(٦٠) المرجع السابق، ص ٢٧٣.

(٦١) د. زكي نجيب محمود: المنطق الوضعي، ج٢، ٢٧٤، ٢٧٥.

(٦٢) د. زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجيد، ص ٢٠٩ وعن الواقعية الأمريكية أيضًا انظر: بيتر كاز، تاريخ الفلسفة في أمريكا (خلال ٢٠٠ عام) ترجمة حسني نصار ومراجعة د. مراد وهبة، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية، دون تاريخ، ص ١٨٥ وما بعدها وعن "جورج سانتيانا" ومنهجه انظر هربرت شنيدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ترجمة د. محمد فتحي الشنقيطي، القاهرة مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤، ص ٤١٩.

* عن مزايا العلم والفلسفة، انظر: د. صلاح قنصوة، فلسفة العلم، القاهرة، دار الثقافة ١٩٨٠، ص ٢٠.

مصادر البحث ومراجعه

١- يوخنيسكي: تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوربا، ترجمة، محمد عبد الكريم الوافي ليبيا، مكتبة الفرجاني، ط١، دون تاريخ.

٢- بيار جيرو: علم الدلالة، ترجمة أنطوان أبوزيد، باريس، منشورات عويدات، ١٩٨٦.

٣- بيتركاز: تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال ٢٠٠ عام، ترجمة، حسني نصار، مراجعة د. مراد وهبة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون تاريخ.

٤- ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، بيروت، دار الهدى، دون تاريخ.

٥- جان ساروبنسكي: اللغة الشعرية واللغة العلمية، مجلة الفكر العربي المعاصر الصادرة عن مركز الإنماء القومي، بيروت ٤/ ١٠ – شباط ١٩٨١.

٦- جو تلوب فريجة وآدم شاف وآخرين: المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث، ترجمة عبد القادر قنيني، المغرب، أفريقيا الشرق، دون تاريخ.

٧- جون لاينر: اللغة والمعنى والسياق، ترجمة د. عباس صادق الوهاب، العراق دار الشئون الثقافية العامة، آفاق عربية ١٩٨٧.

٨- د. زكريا إبراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، مصر مكتبة مصر ط ١، دون تاريخ.

٩- د. زكي نجيب محمود: فلسفة وفن – القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣م.

١٠- ـــــــــــــ: فلسفة النقد – بيروت – القاهرة، دار الشروق، ط١، ١٩٧٩.

١١- ـــــــــــــ: المنطق الوضعي – ج٢ – القاهرة – مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥، ١٩٨٠.

١٢- ـــــــــــــ: حياة الفكر في العالم الجديد، بيروت، القاهرة، دار الشروق، ط٢، ١٩٨٢.

١٣- ـــــــــــــ: نحو فلسفة علمية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، ١٩٨٠.

١٤- ـــــــــــــ: موقف من الميتافيزيقا، بيروت، القاهرة، دار الشروق ط٢، ص ١٩٨٣.

١٥- ـــــــــــــ: قصة عقاب، بيروت، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٣.

١٦- د. صلاح قنصوه: فلسفة العلم، القاهرة، الثقافية، ١٩٨١.
١٧- ـــــــــــــــ: نظرية القيمة في الفكر المعاصر، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٨١.
١٨- د. عبد الرحمن بدوي: مدخل جديد إلى الفلسفة، الكويت، وكالة المطبوعات، ط٢، ١٩٧٩.
١٩- د. عزمي إسلام: مفهوم المعنى، جامعة الكويت، حوليات كلية الآداب، الحولية السادسة ١٩٨٥.
٢٠- د. عزمي إسلام: لدفيج فتجنشتين، مصر، دار المعارف، دون تاريخ.
٢١- فرديناند دي سوسير: دروس في الألسنية العامة، تعريب القرماوي وآخرين، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٥.
٢٢- د. ماهر عبد القادر محمد على: فلسفة التحليل المعاصر، بيروت، دار النهضة العربية ١٩٨٥.
٢٣- د. محمد كامل حسين: متنوعات، ج٢، القاهرة، مطبعة مصر، دون تاريخ.
٢٤- د. مصطفى مندور: اللغة والفكر، القاهرة، مكتبة الشباب، ١٩٩٣.
٢٥- د. معن زيادة: الموسوعة العربية، مجلد أول، بيروت، ط١، ١٩٨٦.
٢٦- هربرت شنيدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ترجمة د. محمد فتحي الشنيطي، القاهرة، مكتبة النهضة العربية، ١٩٦٤.
٢٧- وليم جيسم: البرجماتية: ترجمة د. محمد علي العريان، تقديم د. زكي نجيب محمد: القاهرة، نيويورك، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ١٩٦٥.

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

28-Danil.M. Taylor: explanation& Meaning an introduction to philosophy Cambridge University, Press 1970.
29-Payne. R.W.: Congnitive abnormalities in H.J.E. Ysenck (ed) Hand Book Abnormal Psychology, London, Pitman, 1973.

Abstract

The research dealt with the language of Zaki Naguib Mahmoud, which I have taken special care of from its two angles. The structure and the meaning, he presented the relationship between the word and its meaning - to him - from where he sees that relationship as a causal relationship, adopting the point of view of the behavioral school, and influenced by the theory of relativity. The research also dealt with words and phrases and their meanings, and Najeeb highlighted the importance of some constructivist words such as the word “every” and its role in formulating the scientific law, and some moral expressions in which words such as “goodness” and “beauty” appear, which differed in their meaning with logical positivism.

Najib also presented in his talk about words, as an important philosophical problem, which is the problem of proper names, which he saw as complete symbols in contrast to total words that are incomplete symbols. The research also presented Zaki Najib’s position on philosophy and metaphysics, as a critic of them through the word, He sees that the words that appear in them are not indicative of external names, such as the word "absolute", but they are understood in the context in which they were mentioned; Hence philosophy and metaphysics can be saved from nullification and meaninglessness; Because the meaning is related to the reference. Hence, "meaning" according to Najib, is what refers to something of a thing or a form of behavior, and this comes in line with the tributaries that contributed to the formation of his thought, such as: pragmatism, behaviorism, and logical positivism, which he considers a major tributary of the flowing man's thought.

There is one last thing to note; It is that Zaki Najeeb Mahmoud's approach to language and meaning is a philosophical approach that differs in many aspects from the approach of linguists and those concerned with it, with a purpose and a vision.

Keywords: Language, meaning, thought, Zaki Najib, logical positivism, behaviorism